المجلة اللاهوتية المصرية ٤ (٢٠١٧): ٤٨–٥٢
http://journal.etsc.org

عرض لكتاب "الخضوع" بقلم ميشيل ويلبيك

مايكل باركر Michael Parker* (mike.parker@etsc.org)
كلية اللاهوت الإنجيلية في القاهرة

Submission: A Novel. By Michel Houellebecq. Translated by Lorin Stein. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2015. 256 pages.

في السابع من يناير عام ٢٠١٥، اقتحم اثنان من المتطرفين المسلمين المكاتب الباريسية للمجلة الفرنسية الساخرة *Charlie Hebdo* ("شارلي ابدو") وفتحا النيران من أسلحة آلية. قُتل اثنا عشر شخص وجُرح أحد عشر آخرين، وسرعان ما أصبحت كلمات *Je suis Charlie* (أنا شارلي) شعارًا وسط مؤيدي حرية التعبير في فرنسا. في يوم الهجوم، ظهر على غلاف مجلة شارلي ابدو رسمٌ كاريكاتوري للكاتب الفرنسي ميشيل ويلبيك (ويُنطق ويل-بيك) مصوّرًا نبي هلاك يرتدي غطاء رأس مخروطي الشكل، يبدو أنه لساحر. وعرضت تخيلات ويلبيك التنبؤية في نفس اليوم في روايته السادسة، *Soumission* ("الخضوع" أو "استسلام"؛ بالإنجليزية: *Submission*)، وهي رواية خيالية بائسة تتصوّر فرنسا مُسلمة في المستقبل القريب. وظهرت الترجمة الإنجليزية للكتاب في أكتوبر ٢٠١٥.

ولا داعي لأن نقول إن ويلبيك كاتب مثير للجدل. فقد ربحت روايته *Atomised* الصادرة عام ١٩٩٨ جائزة دبلن الأدبية على الرغم من أن الكثيرين رأوها على أنها كتاب عدمي بشكل مزعج. ولم تحظى روايته *Platform* الصادرة عام ٢٠٠١ بقبول جيد من الناحية النقدية لكنها أكسبته

* ترجمة سامح رهيف.

Originally published as: Michael Parker, "Review of *Submission* by Michel Houellebecq," *Cairo Journal of Theology* 3 (2016): 52–56, http://journal.etsc.org.

سمعة أوسع. كانت رواية رومانسية مليئة بالمشاهد الجنسية وكان يبدو عليها، تحت مُسمّى اقتصاد السوق الحرة، وكأنها تقر الدعارة والسياحة الجنسية. وكذلك فالكتاب ينتقد الإسلام بشكل صريح. وأدى هذا النقد، وما تلاه من تعليقات معادية للإسلام في حوار أجراه لمجلة *Lire* ("لير") حيث وصف الإسلام بأنه "دين غبي،" لمحاكمته عام ٢٠٠٢ بتهمة التحريض على الكراهية العنصرية. وبرّأته محكمة من ثلاثة قضاة حيث وجدوا أن تعبيره عن رأيه أتى في حدود حرية التعبير المشروعة.

ويتخيل ويلبيك في رواية **الخضوع** قيام انتخابات متعددة الأحزاب في فرنسا عام ٢٠٢٢، حيث وصل للمرحلة النهائية ثلاثة مرشحين لأحزاب سياسية مختلفة، وهم: الجبهة الوطنية (اليمين الوطني المتطرف)، والاشتراكيون والاخوان المسلمون الفرنسيون. وفي جولة الإعادة، حدث تساوي بين الجبهة الوطنية والاخوان، حيث قرر الاشتراكيون تشكيل تحالف مع الاخوان، مُفضّلين المسلمين عن عدوهم التقليدي المنيع. وبالتالي تحصل فرنسا على رئيسٍ ورئيس وزراءٍ مسلمَين، وتتحول فرنسا بين عشية وضحاها لدولة إسلامية. وبالرغم من وجود احتجاجات أولية وأعمال شغب وأحاديث عن حدوث حرب أهلية، إلا أن فرنسا تتقبّل الإسلام بسرعة وسلاسة إلى حدٍ ما.

ويمكن القول بأن الدولة تبنّت شكلاً حميدًا من الإسلام، عدا ما يتعلق بمصير المرأة. فتقلص معدل البطالة إلى النصف عن طريق إزاحة المرأة من الوظائف. وتوازنت ميزانية الحكومة الوطنية عن طريق خفض تكاليف التعليم. وهاجر اليهود إلى إسرائيل. وأُعيد تشكيل الاتحاد الأوروبي وكأنه امبراطورية رومانية حديثة، منتقلاً نحو الجنوب ليتمركز حول البحر الأبيض المتوسط كما كان الحال في الإمبراطورية الرومانية الأولى. وانضمت دول جديدة وهي: المغرب وتونس والجزائر ومصر تركيا. وتم الدفع بفرنسا، كونها تملك أقوى جيش واقتصاد في هذا التشكيل الجديد، كقوة عالمية تُعيد إحياء تلك التي للولايات المتحدة.

وبالرغم من أن الرواية هجاء سياسي على طريقة جوناثان سويفت Jonathan Swift وجورج أورويل George Orwell، إلا أنها تحمل في طياتها سخرية قوية وغير مباشرة. وبمجرد أن وصل الإسلام إلى مكانته، فلم يعد يراه اليمينُ السياسي الوطني بغيضًا. فارتأى أحد المفكرين المسلمين في هذا الكتاب أنه "عندما وصل الأمر إلى رفض الالحاد والنزعة الإنسانية، أو القهر

الحتمي للمرأة أو العودة للمجتمع الأبوي، فقد كانوا يصارعوا نفس المعركة بالضبط". ويمكن أن نتوقع تبنّي الوطنيين عودة "القيم العائلية" وإعادة إحياء مجد *gloire* فرنسا في الاتحاد الأوروبي المُصلح. وأُصيب الليبراليون، الذين اشتهر عنهم إنكار تهديد الإسلام، بالشلل والتزموا الصمت بسبب التعددية الثقافية القمعية الخاصة بهم، ونُبذ القليلون الذين حذَّروا من الكارثة الآتية تمامًا كما حدث مع كاساندراس Cassandras – النبي الاغريقي القديم الذي لُعِن بأن يتوقع بدقة مستقبلاً أليمًا دون أن يصدقه أحد. إلا أن السخرية الفائقة في الكتاب هي أن الإسلام ليس هدف سهام ويلبيك الساخرة. فرغم شهرة ويلبيك أنه يمقت الإسلام وتم وصمه على أنه يعاني من رهاب الإسلام، إلا أنه يقدم الإسلام في روايته في أكثر أشكاله اعتدالاً واتزانًا. وبالتالي، فإن الموضوع القابع في منتصف مرمى هذه الرواية ليس الإسلام بل النخبة الفرنسية العقيمة.

ويعترف بطل الرواية، فرانسوا François – أستاذ الأدب في جامعة السوربون ذو الأربعة والأربعين عام – "لم أشعر بأدنى نداء باطني للعمل في التدريس" ويبدأ كل عام دراسي بالبحث عن صديقة من بين طالباته. يدور حديثه الداخلي في أغلب الوقت حول أمراضه الجسدية وحياته الجنسية – فهو منغمس في جنس بذيء الأمر الذي سيجده الكثير من القراء مثير للإزعاج. ويمثل فرانسوا نخبة متعلمة منجرفة أخلاقيًا وروحيًا. وكم كان من السهل شراؤه، هو وكل مَن على شاكلته، بالمعاش المبكر، وذلك عندما تحولت السوربون إلى جامعة إسلامية في باريس. وكان مصدر القلق الحاد لفرانسوا، حال فقدانه لوظيفته، هو أنه سيفقد إمكانية الوصول للطالبات. واقتربَ من الانتحار، قرابة نهاية القصة، لأنه لم يبقَ شيءٌ يحيا لأجله – لا لنفسه أو للإنسانية أو حتى زوجة وأسرة. وأصبح منعزلاً بشكلٍ مؤلم، أصبح شخصية مثيرة للشفقة.

تخصص فرانسوا في دراسة جيه كيه أويسمان J. K. Huysmans، وهو روائي فرنسي ينتمي لأواخر القرن التاسع عشر fin-de-siècle وصنع التحول من حركة الانحطاط إلى الكاثوليكية الرومانية. رفض أويسمان الكاثوليكية في شبابه لكنه كان متشائمًا للغاية من نحو العصر الحديث. كانت رواياته سيرًا ذاتية، تقتفي أثر تقدّمه الروحي حتى تحول إلى الكاثوليكية. ويستخدم ويلبيك حياة أويسمان كغلاف لبطل الرواية الذي رفض، مماثلاً لرائد القرن التاسع عشر، النزعة الإنسانية الخاصة بحركة التنوير كأساس للعصر الحديث إلا أنه لا يمكنه بسهولة تقبُّل العودة للدين.

وارتحل فرانسوا، في مسعاه للعثور على معنًى للحياة، إلى كنيسة المزار الدينية نوتردام Notre Dame في روكامادور Rocamadour لكي يرى العذراء سمراء البشرة. تأثر بمشهدها للغاية لكنه لم يزل غير قادر على اعتناق الكاثوليكية. وفي نهاية الأمر، رضخ للواقع الديني الجديد في فرنسا، وأصبح مسلمًا. وسمح له هذا التحول أن يستعيد موقعه كأستاذ في جامعة السوربون، ونال وعد بالحصول على ثلاث زوجات. واختُتِمَت الرواية بادراك فرانسوا أن "حياته الفكرية قد انتهت" لكن الحياة لازالت تحمل له الكثير.

أين موقع المسيحية في هذا الهجاء؟ يرفض ويلبيك الكنيسة بشكل كامل. وسمح لمفكرٍ مسلم أن يوضح: "لولا المسيحية، لأصبحت الأمة الأوروبية أجسادًا دون أرواح – موتى أحياء." لكنه يعتقد أن "النزعة الإنسانية الإلحادية" غير قادرة على أن تصير قوام المجتمع. إلا أن الكنيسة مضى عليها زمان طويل منذ أن تخلت عن مكانتها كبديل أصيل وموثوق للعلمانية. "شكرًا لإغواء التبسم وللإغراء السافر من التقدميين، لقد فقدت الكنيسة قدرتها على معارضة الانحطاط الأخلاقي، ونبذ زواج المثليين والتصدي لحقوق الإجهاض ودعم المرأة في مكان العمل."

ويمكن المجادلة بأن هجاء ويلبيك مثير للاستياء لعدة أسباب. فبادئ ذي بدء، من الواضح أنه عملٌ مجوَّد لكن بإفراط: فالنخبة الفكرية الفرنسية لن تسقط بالأنين الفاتر الذي يتصوّره المؤلف. في بعض الأحيان يمكن للمفكرين أن يصبحوا حشودًا مفزوعة، مثل أي مجموعة أخرى من الناس، لكن بالتأكيد يمكن توقع أن يُظهِر البعض على الأقل تحديًا نبيلاً. بالإضافة لذلك، فالرواية نبوة سياسية ضعيفة المستوى بلا شك حيث أن الجماهير الفرنسية قد أظهرت بالفعل أنها قادرة، على الأقل في بعض الأوقات، على التصدي لتدخلات الإسلام. أخيرًا، فالرواية بها عامل ارتداد يتضح من الثرثرة الجنسية لبطل الرواية التي لا تنتهي والتي تتصف بتدني مستوى التفكير، ويتضح عامل الارتداد أيضًا من حياته الشخصية المفككة. لكن رواية "الخضوع" قد تتعرض لطعن غير عادل استنادًا على تلك الأسباب.

وفي نهاية الأمر، يميل الهجاء بطبيعته أن يُجوَّد بشكل مفرط: فهو يُستنبط من بعض الاتجاهات الراهنة، متجاهلاً اتجاهات أخرى، بهدف التنبؤ بمستقبلٍ مرعب. بالتالي، فهو ليس نبوءة بل تحليلاً سياسيًا. حقيقةً، فالمفكرون تم معاملتهم بصورة غير منصفة في هذه الرواية ولم تُقدم لهم أية رحمة، لكن

المؤلف يبدو أنه شعر، وأعتقد أنه أصاب في ذلك، أنهم بحاجة لأن يُذكّرهم أحدهم من وقت لآخر – بعبارات لا لبس فيها – بأن مهنتهم تقتضي أكثر من الفضول المتحذلق واللمعان المثقف. وفي الواقع، يحتاجون لأن يتعاملوا مع ما يهدد القيم العزيزة بجدية – أي التعامل مع الأفكار بجدية. وأدرك فرانسوا ما يلي في نهاية الأمر: "لقد كنت على وشك الاستقالة وأنا في حالة لامبالاة. لكني كنت مخطئًا." أما فيما يتعلق بمجون بطل الرواية، فيميل المرء إلى ملاحظة إسقاط نزعات المؤلف الخاصة بدلاً من التحليل الاجتماعي.

منح ويلبيك قُرّاءَه نقدًا مدمّرًا للنخبة الفكرية الفرنسية الحديثة ومنحهم طريقًا واحدًا محتملاً – إن لم يكن مرجحًا – قد يسلكه المجتمع الفرنسي وربما المجتمع الأوروبي أيضًا في المستقبل غير البعيد. وإذا كانت روايته تُكسب القارئ شعورًا بعدم الراحة أو بالامتعاض أو حتى بالغضب، فربما نجح هذا المؤلف المثير للجدل ببساطة في ربح ردود الأفعال الكئيبة التي تتحقق بطبيعة الحال عند أي هجائي ناجح.